ثقافة الجاحظ وأثرها في شخصيته

د. مصطفى محمود يونس

ماذا نقصد بثقافة الجاحظ ؟ هل نقصد بها محصلة العلوم والفنون التى عمر بها عقله ، وامتلأ بها جنانه • أم نقصد بها مجموعة الكتب والمؤلفات التى زخرت بها المكتبة العربية من ذخائر المطبوعات ونفائس المخطوطات • أم يا ترى نريد بثقافة الجاحظ تلك المجالات المختلفة التى أسهم فيها بفكره وعقله باحثا وناقدا وراويا ومدققا • ان الباحث الذى يعرض لثقافة الجاحظ ويتبين منها أثرها في شخصيته لا بد أن يلم بذلك كله ، وأن يدرك المعنى الواسع لمدلول الثقافة ، والاسباب التى دعمت كيانها ، والمجالات التى تفتحت فيها براعمها ، ثم قويت فروعها واشتدت أغصانها •

لقد كان الجاحظ عالما دون شك ، وكان الجاحظ أديبا بلا ريب ، ثم هو مع ذلك بحاثة في اللغة وبيانها وآدابها خاض بحار العلوم والمعارف ما كان منها عربيا أصيلا ، وما كان مترجما منقولا من الامم الاخرى ، وكانت عقليته عميقة الغور ، بعيدة المنزع ، أفادت من مناهج الحكمة والفلسفة والمنطق والتاريخ •

واذا كان الجاحظ كذلك فما هى المنابع التى استقى منها ثقافته والى أى مدى كان لهذه الثقافة تأثير في شخصيته •

ان أول ما يصادف الباحث هذه الثقافة العربية الاصيلة التى ملكت على الجاحظ كل كيانه ، وأثرت في حياته أقوى تأثير فهى منبع غزير من منابع علمه وألمعيته وموسوعيته وعبقريته ولعل المربد كان مجالا حيويا لهذه الثقافة التى ألم بها الجاحظ في مبدأ

حياته ومقتبل عمره فهو أحد أسواق البصرة أو هو سـوق البادية فيهـا .

وكذلك نجد للمربد مثل هذه الخطورة بالنسبة لطالب الكلام الذي يهيىء نفسه ليكون متكلما يجيد الجدل ويعرف وسائل الاقناع أو الافحام فقد كان من أقوى هذه الوسائل وأبلغها أثرا أن يكون المتكلم فصـيح المنطق برىء اللسان حسن البيان فذلك كما يقول الجاحظ في حديثه عن واصل بن عطاء ، ومن أكبر ما تستحال به القلوب وتنثنى اليه أعناق وتزين به المعانى والمربد يهيىء الناشيء لهـذه الغاية اذ يطبعه على البيان فيرقق لسانه ويهذب الحاسة اللغوية فيه .

ولم يكن الجاحظ يكتفى من هؤلاء الاعراب بتلقف الفصاحة ورواية الاثار الادبية فقـد كان الى جانب ذلك يعجبـه ويلذ له أن يشهد حركات عقولهم وهى حركات ماهرة رشـيقة ويصغى الى نوادرهم وطرائفهم وما دق ولطف من محاوراتهم فاستطاع بذلك أن يداخلهم واستطاعوا بذلك أن يظفـروا به كبيرا الى حد بعيد . والمربد مع ذلك يعتبر من البيئات الادبية البصرية فقد كان شعراء البصرة وظرفاؤها يرون فيه متنزها لهم وصقالا لخواطرهم فكانوا يخرجون اليه ويجلسون في بعض أرجائه يتناشدون القصيد ويتطارحون الشعر ويتبادلون الاحاديث ويتناقلون الاخبار وكذلك كان للخطبـاء مجالس فيه يتبادلون فيها الاغراض المختلفة بالعبارات البليغـة المنتقـاة .

ان بيئة من هذا النوع الذى يؤمه أخلاط الناس ، وان ملتقى من هذا الصنف الذى يأوى اليه الادباء والشعراء لا بد أن يجد فيه الجاحظ بغيته من الثقافة ، وينشد فيه الفتى حاجته من المشـاهد المختلفة ثم لا جرم بعد ذلك أن كانت هذه البيئة ذات أثر بليغ كبير في تفتيح عقل الناشيء ، وتثقيف ذوقه الفنى .

وحين نذكر المربد وأثره في ثقافة الجاحظ فاننا نذكر الى جوار ذلك مسجد البصرة وهو في ذلك الوقت مجال للعلم الواسع ، وميدان للثقافة الحرة ، وملتقى للعلماء والشعراء والادباء يأوون اليه في أوقات مختلفة يتحدثون في بعض الامور التى تشغلهم ، ويتدارسون أهم المسائل التى تعرض لهم ، يروى أبو الفرج الإصفهانى أن قوما من بنى تميم فيهم الاحنف بن قيس كانوا يجلسون في المسجد يتذاكرن أهل الكوفة وأهل البصرة فيأخذون في المفاخرة بينهم والمناظرة بين مآثرهم الى غير ذلك من ألوان الحديث التى تصور نوازع ذلك المجتمع البصرى العربى في حالاته الاولى . ثم بدأت الحياة تتعقد في البصرة وأتاحت للناس ألوانا من الترف وأنواعا من اللهو أضعف فيهم العاطفة الدينية وصرفهم عن أن يتدبروا أوامر الدين ونواهيه فيما يعرض لهم من شئون حياتهم وهنا نجد جنبات المسجد تتردد بأصداء هذه الحياة فنرى مجالس الزهاد والقصاص قد بلغت حدا كبيرا يحاولون ابتعاث العاطفة الدينية من غفلتها اثارة الجانب الروحى من مكمنه . ثم لا يقف الامر عند هذا الحد بل تدخل فيه عوامل جديدة توجهه توجيها جديدا فهذه المجالس - وان اتفقت في الغاية الاولى منها - كانت مختلفة الالوان فيما بينها ففى أصحابها العربى والفارسي وفيهم المرجىء والعثمانى والخارجى والشيعى . ثم أخذت هذه المجالس تزيد وتتسع ، وتنوع الجمهور الذى يغشاها أيضا تنوع كما جعلت المسائل التى تعرض فيها وتبحث بها تتشعب وتتعقد وأخذت بذلك تبعد عن الحياة العملية فتتناول المسائل النظرية البحتة وهكذا أخذت مجالس الكلام تضع يدها من أول يوم على شتى مسائل العلم وتدخل في نطاقها مختلف المعارف ولم تعد مجالس المتكلمين تقتصر عليهم وحدهم بل اجتذبت اليها الشعراء والادباء والمحدثين والرواة كما استهوت بعض العامة من لهم شغف بالكلام والمتكلمين وكذلك أتاحت هذه المجالس لمسجد البصرة ذلك الجو العلمى السابغ وتلك الحياة الواسعة القوية وهذه الروح الفتانة الجذابة .

وليس بدعا أن تستهوى الجاحظ هذه الحياة العلمية الادبية في مسجد البصرة فنراه يسرع اليها يخالط بذلك المسجديين ويجلس اليهم ويطلب منهم العلم والادب حتى تكون أحاديثهم ومحاوراتهم أول ما تفتح عليه عقله ثم يشترك في هذه الحياة بفكره ورأيه ، وقد أشار هو الى ذلك اذ يقول ، في صـــدد حكايته لبعض نوادر المرددين في بعض كتبه : وبينما أنا جالس يوما في المسجد مـــع فتيان من المسجديين مما يلى أبواب بنى سليم وأنا يومئذ حـدث السن اذ أقبل أبو سيف الممرور .. الخ .

هؤلاء المسجديون الذين يعرضون في مجالسهم وأحاديثهم شتى نواحى الحياة وما أخلق هذه الاحاديث أن تفسح أفقه وأن تفتـــق ذهنه وتفتح خياله وتعمل في ترشيحه لذلك المكان الذى صار اليه .

واذا كان مسجد البصرة الجامع هو المركز الرئيسي للحيـــــاة العلمية فيها فان مجلس العلم العامة لم تنحصر فيه فقد كان هناك مواطن أخرى متعددة لهذه المجالس تتسع لذلك النشـــاط العلمى الرائع الذى لم يكن المسجد الجامع ليتسع له كله ولقد قيل في ترجمة النضر بن شميل : ان عدد من كان في البصرة من المحدثين والفقهاء واللغويين والنحويين والادباء كان يبلغ في عهده نحـــو ثلاثة آلاف فكيف كان يستطيع هؤلاء أن يأخذوا أمكنتهم في المسجد الجامع ؟ وكذلك كانت مجالس العلم تنعقد ـ الى جانب المسجد الجامع ـ في مساجد الاحياء وفي أفنية الدور ولقد كانت البصرة مدينة كثـــيرة المساجد التى كانت تملأ أرجاء البصرة كانت الحلقات العلمية المختلفة وان لم يبق لنا من أخبار هذه المساجد الا بعض الاشارات العابرة الضئيلة وليس يساورنا شك أن الجاحظ كان يؤم هذه الحلقـــات في مساجد الاحياء أو أفنية الدور باحثا عن الثقافة في أى لـون من ألوانها ، منقبا عن المعرفة في أى صورة من صورها ، مشتركا فيها بقدر ما أوتى حظا من العلم ، أو رزق قسطا من التعليم .

ولو رحنا نتبع مظاهر النشاط العلمي والادبي في البصرة فانا نجده لم يكن قاصرا على تلك المجالس العامة بل كان الى جانب تلك المجالس العامة التي تنعقد في المساجد والافنية أنواع من المجالس الخاصة تنعقد في دور الامراء والاشراف والسراة وغيرهم من أهل البصرة ولعل هذه المجالس مما اصطلح بين الادباء على تسميته بالاندية الادبية .وكان مما تمتاز به هذه المجالس أن الاحاديث التي كانت تدور فيها أوسع دائرة وأكثر حرية وأشد انطلاقا وهي بذلك كانت بعيدة الاثر في تكييف الجو الادبي والاجتماعي بالبصرة وفي توجيه العقول والاذواق فيها فقد كانت أحاديثها تنتشر بين الناس وتشيع بين المجالس اذ هي ليست من الاحاديث المبتذلة الرخيصة وبذلك كانت تتفتح لها نفوس الناس تفتحا شديدا وتتأثر بها عقولهم تأثرا بليغا فلا تلبث أن تغمر الجو العام وتتغلغل في أعماق الناشئة المتطلعة ٠

هذه الاندية الادبية القائمة في دور الامراء والاشراف من أهل البصرة والتي كانت تتمثل في مجالسهم كانت مظهرا من مظاهر الترف التي كانوا يظهرون للناس بها ٠ ويجدون شيئا من المتعة في اصطناعها ثم لا شيء فيها أكثر من أنهم بتلك النزعة التي غلبت عليهم قد أتاحو للادباء والعلماء وأصحاب الآراء أن يجتمعوا في دورهم وأن يجدوا من هذه الدور أمكنة هادئة ملائمة للحديث الطلق والمناظرة في شتى مسائل العلم وموضوعات الادب وأنهم قد أوجدوا بذلك بيئة أدبية جديدة فيها ما يحفزهم ويثير نشاطهم ويبعث قوتهم وبذلك الاعتبار يمكن القول بأن هؤلاء الامراء والاشراف قد أثروا في الجو الادبي والعلمي في البصرة تأثيرا واضحا ٠واستطاعوا أن يربطوا بين الثقافة والشعب أو بمعنى أصح استطاعوا أن يوجدوا صلة وثيقة بين الحياة العقلية والشعب البصري مما أتاح للطبقة العاملة الكادحة أن تأخذ حظها من العلم وأن تنال نصيبها

من الثقافة والمعرفة ، حتى كان أكثر شعراء ذلك العصر وعلمائه يخرجون من الطبقة الدنيا مثل بشار وأبى نواس من الشعراء وأبى الهذيل العلاف وأبى جعفر الاسكافي من المتكلمين الى غير أولئك من علماء البصرة وشعرائها الذين يمكن أن يكونوا مثالا واضحا على توثق الصلة في البصرة بين الحياة العقلية والحياة العامة اذ كانت مواطن الثقافة مواطن عامة متاحة لجميع أهل البصرة يختلفون اليها ويتصلون بها لا فرق في ذلك بينهم بل لعل أبناء الطبقة الدنيا كانوا أوفر منها حظا وأكثر عليها اقبالا وانما كانوا يختلفون في مقدار ما يصيبون منها لاختلاف ظروفهم وتفاوت استعدادهم فمنهم من يستغرق في هذه الحياة ، فيتميز فيها ويعرف بها ومنهم من كان يظل عمله اليومى أغلب عليه فهو يلم بها لماما كهؤلاء الذين يحكى الجاحظ عنهم من البحريين والعطارين من أصحاب الكلام •

ترى ماذا أصاب الجاحظ من هذه الثقافة العامة ؟ والى أى مدى أثرت هذه الحياة العقلية في شخصية الجاحظ ان الذى يتبادر الى ذهن الباحث أن الجاحظ اشترك في هذه الاندية العلمية بكل ما أوتى من رجاحة في العقل ، وامتح من رزانة في التفكير ، ورزق من عاطفة قوية جياشة تدفعه الى التعلم ، وتميل به الى التعليم • ومن أولى من الجاحظ أن ينزل الى هذه الميادين يغترف منها ماشاء من المعرفة دون أن يحتمل في سبيل ذلك عنتا ولا ضيقا ، أو تكلف دون ذلك ما لا طاقة له به • ان بيئة الجاحظ التى نشأ فيها ، وما منى به من ضيق في الرزق وشظف في العيش ، كان ذلك هو يحتم عليه أن يروى غلة عقله من ذلك المنهل الحر الذى يتوافد عليه بنو جنسه في غير تزاحم ولا صراع • وكذلك أتيح للجاحظ أن يأخذ من هذا المنبع الغزير ما يضيفه الى ثقافته الواسعة ، وعلمه الوافر ، ومعلوماته الكثيرة • كما أتيح له أن يرى مناهج للحكمة ، وأساليب للمعرفة ومذاهب الادب ، وبذلك أتيحت له فرصة النقد لما يرى ويستمع ، والتمييز

بين ما يحب ويكره ، والتعرف الى ما يحسن ويسيء من أبواب الادب وألوان الشعر ، فتفتحت له أبواب طرق النقد ، ووضحت أمامه سبل البلاغة ، وقويت عنده أسباب التذوق والدراسة والتحليل .

ثم كانت هناك بيئة لها أهميتها ؛ وليس في الامكان اغفالها ونحن نتعرض في الحديث لثقافة الجاحظ تلك هى بيئة الكتب فهي أصدق البيئات في البصرة تصويرا لها ، واستجابة للحركات العقلية والاجتماعية فيها ، كما أنها من أبعدها خطرا في تكوين رجالها ، وتشكيل علمائها وأدبائها . ويشير الجاحظ الى شيء من هذا المعنى فيما يتحدث به عن مكانة الكتاب وفضله وأنه أجدى على الرجل من الاختلاف الى العلماء والتلقى عن الشيوخ وذلك اذ يقول : وقد تجد الرجل يطلب الاثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا فما هو الا أن ينظر في كتب أبى حنيفة ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه بعض العمال وبالحرى ألا يمر عليه من الايام الا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الامصار أو بلد من البلدان» .

ويبدو أن الجاحظ لم يكن يعنى بذلك كتب الفقه وحدها ، أو يجعل أمر المعرفة قاصرا عليها . فمثل هذه الكتب وغيرها مما يقصد به الى المعرفة ومن ذلك ما حكاه المرتضي أن أبا اسحق النظام مر بالكوفة وهو في طريقه الى الحج فنظر فيها في بعض كتب الفلاسفة فلما ورد البصرة كان يظن أنه علم من لطيف الكلام ما لم يعلم أستاذه أبو الهذيل . قال النظام : فلما ناظرته خيل الى أن لم يكن متشاغلا قط الا بها .

وهكذا نرى أن البصرة كانت مثابة للكتب المختلفة كما كانت موردا للثقافات المتباينة وقد جعلت هذه الكتب تترك آثارها في

مظاهر الحياة العقلية فيها وبذلك كانت من أقوى العوامل التى قربت بين الامصار المختلفة ووفقت الى حد كبير بين اتجاهاتها المختلفة وأوجدت أخيرا نوعا حديثا من العلم وأسلوب الفكر لا يختلف كثيرا باختلاف الامصار ٠

ولم تكن الكتب في عهدها الاول الا مدونات يسجل فيها ما كان يلقى اذ ذاك في مجالس العلم من تفسير أو حديث أو عربية ، وما كان يتردد في مجالس المفاخرة والمنافرة من مآثر ومثالب ٠ ولكن الحركة العلمية لم تلبث أن اتسعت وأخذت الحوافز المختلفة تحفز طبقات الناس للمعرفة فقويت رغبة الناس في القراءة ، فكان لا بد أن تتوفر الكتب لهم وبذلك نشأت صناعة الوراقة وقامت في البصرة سوق للوراقين منذ أواسط القرن الاول كذلك أخذت الكتب تنتقل من طور التدوين المطلق وأخذ العلماء يتجهون بعلمهم الى تلاميذهم وقرائهم معا كما أخذ الوراقون يلتمسون من كل سبيل مادة صناعتهم فيجمعون من هنا وهناك ما يرونه جديرا باقبال الناس عليه فهاهى ذى رسائل غيلان بن مسلم الدمشقى وكان من المعارضين للدولة في أيام بنى أمية ما أجدرها باعجاب الناس واقبالهم وهاهى ذى خطب واصل بن عطاء المحفوظة ورسائل المخلدة كما يصفها الجاحظ مما كان يصفها ويتميز ألفاظها كذلك الى غير ذلك مما حفظت الرواة أو وعت الاوراق في الاقطار المختلفة ٠

وهكذا كانت الحوافز المختلفة تحفز الرغبة في القراءة وتنشطها فكانت هذه الرغبة الملحة تستثير النشاط في المؤلفين كما تستثير نشاط الورقين فكانت كتب بعض العلماء البصريين - كأبى عبيدة مثلا - تتجاوز المائة وحتى كان الكثير منهم وراقوهم المختصون بهم كما كان دماز وراق أبى عبيدة وقد امتلأت دكاكين هؤلاء الوراقين بالكتب المختلفة وبذلك أصبحت هذه البيئة

العقلية المجردة من أعظم بيئات البصرة وأوسعها مدى وأبعدها سلطانا .

ولقد كانت هذه البيئة تمثل حياة الشعب البصرية في مختلف نواحيها : تمثيلا صادقا فقد سايرته في جميع مناحيه واتجاهاته واستجابت لجميع نزعاته ونزواته واتصلت اتصالا وثيقا بألوان حياته فهى في بعض جهاتها صورة من نزعاته الجنسية والدينية وفي جهة ثالثة صورة من حياته العملية اليومية . واذا كانت الكتب العربية لذلك العهد قد ضاعت الا اثارات ضئيلة فان فهارس الكتب التى أفردت بالتأليف والتى تذكر في تراجم المؤلفين تريننا كيف كانت الكتب لذلك العهد وفية للحياة وفاء كبيرا .

والذى يعنينا من الامر أن بيئة الكتب كانت من أوسع البيئات مجالا واكثرها افتتانا وأشدها مسايرة للنزعات المختلفة فلا جرم أن كان أثرها عظيما في تكوين الجاحظ ذلك التكوين العجيب وفي طبعه بذلك الطابع المتعدد الالوان . ولعل الجاحظ كان من أكثر أهل عصره ولوعا بالكتب وتعلقا بالقراءة والتماسا للمعرفة مما كان يدونه العلماء وأصحاب الكتب في كتبهم من شتى فنونها ومختلف ألوانها . وقد حكى ياقوت في معجمه وابن شاكر الكتبى في كتابه عيون التواريخ فيما ترجما به للجاحظ عن أبى صفان .. وهو من أصحاب الجاحظ ـ أنه قال : لم أر قط من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب الا استوفي قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكترى دكاكين الوارقين فيبيت فيها للنظر في الكتب .

وهذا الخبر الذى يحكيه أبو صفان خليق أن يكون صحيحا فهو يقرر ما توحى به الينا كتب الجاحظ التى بقيت في أيدينا اذ هى تدلنا دلالة قوية على مقدار عنايته بالكتب وحبه لها واستغراقه في قراءتها واستدامة حظه فيها وأنه كان يحيا منها في هذه البيئة

التى كانت تتمثل فيها شتى الاتجاهات العقلية في البصرة مما كان ينبعث منها وما كان يطرأ عليها • وكما كانت هذه البيئة من أعظم البيئات التى عاش الجاحظ فيها أثرا في حياته العقلية وفي توجيهه تلك الوجهة كانت فيما يبدو من أول ما أتيح له من مصادر الثقافة وما تفتح عليه عقله من وسائل المعرفة اذ لم تكن حياته الاولى التى كانت تحمله على الاضطراب في الاسواق والضرب في الارض والكدح الدائب للعيش لتمكنه من أن يطلب العلم طلبا منظما في حلقات الشيوخ ومن أن يجلس اليهم ويتلقى عنهم تلقيا مطردا متصلا فقد كان ذلك رهين ما يتاح له من فراغ ولعله كان قليلا • فأما الاخذ عن الكتب والتثقيف بها فأمر مختلف عن هذا ولعله هو يشير الى ذلك وينظر الى هذه الحالة من نفسه في أوائل أمره اذ يقول في بعض ما كتبه عن فضل الكتاب : « وليس يجد الانسان في كل حين انسانا يدربه ومقوما يثقفه والصبر على افهام الريض شديد وصرف النفس عن مغالبة العالم أشد منه والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيدا وبما يحتاج اليه قائما وما أكثر من فرط في التعليم أيام خمول ذكره وأيام حداثة سنه ولولا حبنا بالكتب وحسنها ومبينها ومختصرها لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ونزعت الى حب الادب وأنفت من حال الجهل وأن تكون في غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل والمضرة ومن الجهل وسوء الحال ما عسى ألا يمكن الاخبار عن مقداره الا بالكلام الكثير » ويكون هذا المعنى في موضع آخر في سياق كلامه عن الكتاب أيضا متحدثا الي القارىء•• وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر مع السلامة من الغرم ومن كد الطلب ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ومن الجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقا وأكرم منه عرقا ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الاغبياء والكتاب هو الذى يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر ولا يعتل بنوم ولا يعتريه كلال السهر وهو المعلم الذى اذا افتقرت

اليه لم يفخرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة » ٠٠ فلكأنما نلمح من خلال هذه الكلمات صورة الجاحظ في مطالع شبابه وقد شغلته الحياة عن مجالس العلم وحرفة طلب العيش عن حلقات الشيوخ ونأى عن الفقر عنهم وحملته الايام على السفر والضرب في الارض فاتخذ من الكتاب أستاذا يصحبه أنى ذهب ويدارسه حين يفرغ له في أية ساعة من ليل أو نهار ويقبل عليه اقبال من أحس الحرمان فهو يلتمس فيه ما فاته من غيره في لهفة والحاح ٠

وهكذا يمكن القول بأن حيـاة الجاحظ المكدودة المضطربة في أوائل نشأته كانت بذلك أيضا من العوامل الخطيرة في تكوين شخصيته فكما كشفت له عن آفاق مختلفة من الحياة وأظهرته على ألوان شتى من الاخلاق والطبائع والعادات كذلك جعلته ـ بما اعتاقته عن مجالس الشيوخ وحلقات العلماء ـ سيقوض عن ذلك بالكتب وينصرف الى دكاكين الوراقين اذا انصرف آخر النهار من كدحه يلتمس فيها ما تطمح اليه نفسه فيجد فيها ألوانا مختلفة من المعرفة وصورا عدة من الحياة العقلية والادبية ، خليقة بأن تثير رغبة مثله في الاستزادة وتغريه بالاستغراق فيها والادمان عليها وتجعل عقله الناشيء يتفتح ويتوثب ويستشرق وتهيئه ليكون من أوسع العلماء معرفة وأكثرهم بمعارف عصره احاطة ٠

ولقد كان لهذه النشأة بين الكتب أثرها في أن الجاحظ ظل حياته كلها مشغوفا بالقراءة لا يكاد يملها أو ينصرف عنها ونرى صورة جلية رائعة من هذه النزعة القلابة لديه في رسالته الجد والهزل كما لا نحسب أن أحدا وصف الكتب وتحدث عنها بمثل ما تحدث به هو عنها في تلك الفصول الرائعة التى صدر بها كتاب الحيوان فقد غلب عليه حب الكتاب غلبة شديدة وقد أتاحت له البصرة من ذلك حظا موفورا ويمكن القول أيضا بأن هذا الحب القديم وهذه العلاقة الشديدة من العوامل القوية التى جعلته يؤثر صناعة

التأليف ويستغرق فيها ويوجه نشاطه كله لها ويجعلها وكده وهمه الذى لا يطيب، له عين من دونه وبذلك أصبح الكاتب الاول في تاريخ الادب العربى .

ولن يستطيع الباحث وهو يتعرض لثقافة الجاحظ العظيمة ويحدد مصادرها ومنابعها ، ويستعرض مقوماتها وأسبابها . لن يستطيع الباحث أن يذكر ما كان لذلك الاستاذ العظيم من أثر واضح في ثقافة الجاحظ وتوجيهه هذه الوجهة التى اختارها لنفسه وشق بها طريقه في حياته العريضة وأعنى بذلك المعلم القدير أبا اسحق النظام فقد اتصل به الجاحظ مبكرا وصاحبه مدة طويلة وبذلك أتيح له أن يتأثر به تأثرا كبيرا في تكوين عقله وفي توجيه حياته . ولقد كان النظام من أصحاب النفوس المفتوحة التى لا تحتجز شيئا والعقول الفسيحة المدى الواسعة الافق والاصيلة الخصبة التى تستطيع أن تتمثل كل شيء وترده في أدق الصور وأحسنها والالسنة الطليقة التى لا تتردد ولا تتلبث ولا تحاذر فكأنما خلق بذلك ليكون أستاذا معلم جيل وموجه مذهب اذ كانت هذه الصفات من أخص خصائص الاساتذة والمعلمين أصحاب المبادىء والآراء .

ولم تلبث الصلة بين الرجلين أن قويت واستحكمت فقد وجد الجاحظ في أستاذه النظام المثالى العلمى الرائع الذى طالما كان يتطلع اليه عقله ويهفوا اليه خياله ووجد في عباراته السيالة الساحرة ومناظراته الماهرة البارعة ووثباته الذهنية الرائعة التى تربط بين مسائل الكلام والفلسفة في قوة واحكام واتساق ونقداته المحكمة التى تصيب أهدافها مباشرة ومن أقصر الطرق ودعاباته العاتبة الماكرة وسخريته النافذة في لطف وخفة كل أولئك وجد فيه الجاحظ غذاءه العقلى ومتاعه النفسي الذى ظل زمانا يتحسسه فيصيبه حينا ويخطئه أحيانا .

لقد كان التطلع الى معرفة كل شيء أبرز الخصائص العقلية عند الجاحظ منذ أول عهده الى أن تقدمت به السن كما كان أبلغها أثرا في توجيهه وتكييف عقله وكان النظام من أوسع أهل عصره معرفة وأكثرهم احاطة يقول الجاحظ في وصفه : « وكان ابراهيم بن سيار فرضيا عروضيا وكان حاسبا ومنجما وكان نسابا وكان حافظا للقرآن العظيم وتفسيره وللتوراة والانجيل والزبور وكتب الانبياء وكان قد عالج الكيمياء وعرف مذاهبها وكان أروى الناس لكلام الاوائل وصنوف نحل الاسلام وأحسن الناس احتجاجا وأبلغهم عند الاحتجاج لسانا .. وكان صاحب حديث عالما وكان له نسك وخالط الصوفية وأصحاب المضمار وعرف اختلافهم وكان يقول الشعر اذا أراده وكان يستخرج المعنى وكان حسن العلم بالنحو » فلا جرم أن وجد فيه ذلك الشاب المتطلع الى معرفة كل شيء عالما متسع الاكتاف يزخر بشتى ما يتطلع اليه ويتشرف الى معرفته والاشتمال عليه .

وكما وجد الجاحظ فيه ذلك الاستاذ الذى يرضي نوازعه المتوثبة وجد فيه عواطفه الدافئة ، وروحه الخيرة الحانية ، كثيرا من معانى الابوة الكريمة التى كانت نفس الجاحظ شديدة التعطش لها منذ فقد أباه في فجر حياته ثم قست عليه الحياة فزادته شعورا بالحاجة الى العطف الابوى .

أما من الناحية الاخرى فقد وجد النظام في تلميذه الجاحظ شابا لقنا شديد التطلع متوثب العقل الى الآماد العقلية البعيدة رحب الفكر لا يضيق برأى ولا يتأثم فتطلعت له نفسه وليست حاجة الاستاذ الى تلميذه بأقل من حاجة التلميذ الى أستاذه حين يكون في ذلك التلميذ تلك الصفات العقلية التى كانت للجاحظ وحين يكون الاستاذ أديبا تغلبه النزعة الفنية كما كان النظام . وكذلك اشتد حرص النظام على تلميذه كما اشتد حرص الجاحظ على أستاذه يلازم مجلسه ويقرأ بقراءته ويشهد مناظراته ويسير

بسيره ويرحل برحلته فتأثر به أشد التأثر في تكوين شخصيته واتجاه حياته حتى كان أثره الواضح في كيفية نظره للاشياء وتناوله المسائل وتقديره لها مما يمكن أن يكون من أثر ذلك الاستاذ الذى لم يفتا تلميذه ويضمر له الاجلال والتعظيم فهو كثير الاشادة بذكره وعظيم أثره • ولقد كانت مظاهر التجاوب بين طبيعة النظام وطبيعة الجاحظ واضحة الى حد كبير وهى المظاهر التى آزرت الصلة بينهما ومكنت للاثر النظامى من عقل الجاحظ وهذه المظاهر هى أقرب المظان التى نلتمس لديها ذلك الاثر اذ كانت أكثر النواحى تأثرا وتأثيرا فالاستاذ لايخلق تلميذه خلقا جديدا وانما جهد مايصنع منه أن يذكى نوازعه يسددها بما يبعث من قواه النفسية عليها فيثير فيها عوامل الريع والزهو والنماء على قدر ما يكون من التجاوب بين الطبيعتين • ولقدكان الجاحظ منذ طفولته اغنه طلعه كل شيء حوله يثير عجبه ويلفت نظره ويبعثه وراءه حتى اذا كانت صلته بالنظام وجد فيه عالما بعيد المدى فسيح الجوانب كما وجد فيه رجلا امتلأ عقله حيوية ونشاطا وتوثبا فكل شيء يعرض له يثير فيه نزعة التطلع اليه فينبعث وراءه ويحصله ثم يثير فيه مرة أخرى نزعة التفتيش والتمحيص والنقد فلا يلبث في يده حتى يقلبه ويستنبطه ويحكم عليه غير عائى بشيء مما وراء ذلك وكذلك آذكى النظام في تلميذه الجاحظ نزعة التطلع وقوى لديه روح النقد وعادل في نفسه بين الامرين حتى لا تغلب واحدة منهما الاخرى وهذه الثلاثة هى – في حقيقة الامر – الاصول التى تجتمع فيها قسمات الجاحظ العقلية المختلفة •

وبعد فتلك أهم البيئات التى عاش فيها الجاحظ وكان لها أكبر الاثر في حياته العقلية ، وتكوين شخصيته العلمية ذلك التكوين الرائع ، وتوجيهها هذه الوجهة التى اتفقت مع طبعه واستعداده وخلقت منه العالم العظيم ، والمؤرخ النابه ، والاديب الرائع فكان عالما فوق العلماء ، واماما من أئمة الادب وكاتبا من أعظم كتاب العربية ومؤلفا ليس له نظير في تاريخها الطويل •